الرفيق ابو احمد : تل الزعتر هو ستالينغراد الفلسطينية

"استعدنا الدير عشرة مرات"

« كنت في قاعدة للجبهة الشعبية على حاجز قريب من سلاف عندما اخبرت بان الانعزاليين قد اجتاحوا دير الراعي الصالح واحتلوه مرة اخرى ، ذهبت لاستطلع متسللا ، فالتقيت رفيقين من الجبهة واخر من فتح ، اكدوا لي النبأ ، وفي طريق عودتي الى القاعدة ، اطلق علي الانعزاليون الرصاص واصبت في اسفل البطن ، نقلت الى اقرب نقطة اسعاف ، كانت تابعة للهلال الاحمر ولهذا نقلت مع الدفعة الاولى من الجرحى مع الصليب الاحمر .

هكذا وصل جريحا حيا ، الرفيق ابو احمد نائب مسؤول الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين ، اما مقاتلو الجبهة الشعبية مع قياداتهم، الذين اتخذوا القرار الاجدر، وصمموا على البقاء في مخيم تل الزعتر حتى خروج اخر مدني منه ، فقد استشهد الغالبية العظمى منهم، ومعهم الرفيق ابو امل ، قائد الجبهة الشعبية في المخيم .

« لقد حصل خطأ بخروج المقاتلين من المخيم . ارسلت برقية الى بعضهم تقول لهم : « عسكري ، راسك » وعندها خرج المقاتلون الى الاحراش يبعهم جماعات من السكان .. ودب الارتباك وشيء من الرعب . وكان من الاجدر والافضل ان يبقى المقاتلون في المخيم وينسحب المدنيون عن طريق الصليب الاحمر ، وبعد انسحاب اخر مدني ، ينسحب المقاتلون. وانصافا للحقيقة فان مقاتلي الجبهة الشعبية صمموا على البقاء على هذا الاساس « فاستشهد معظمهم » ..

وروى الرفيق ابو احمد للهدف كيف قاوم المخيم البطل وصمد . وقال : « ومع بدء الحصار الاخير لتل الزعتر في ٢٢ حزيران ١٩٧٦ ، كان للمنطقة الشرقية (في المخيم) قيادة تتألف من المسؤولين الاوائل في التنظيمات . وكان كل تنظيم يحمي محورا معينا . والمحور الذي يواجه ضغطا شديدا ، ترسل له مجموعات من التنظيمات الاخرى للمساندة. هكذا كان الوضع في تل الزعتر .

« محور الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين كان محورا كبيرا جدا ، بالنسبة لحجم قوات الجبهة الشعبية في المخيم . كان يمتد تقريبا ، على اكثر من ثلث مساحة المخيم ، من مصلبية بيت مري ـ المساحة المقابلة لحرش ثابت ـ وكانت تساندنا في المدة الاخيرة ، مجموعة من فتح . وعند سلاف ودير الراعي الصالح كانت تساندنا مجموعة من جيش التحرير الفلسطيني . اما المنطقة المواجهة لحرش ثابت فكانت الجبهة متواجدة في هذا المحور وحدها» .

والهجمات على دير الراعي الصالح وسلاف ، وعلى المحور المقابل لحرش ثابت كانت شبه متواصلة . واستطاعت القوات الانعزالية بكثافة نيران المدفعية المباشرة والرشاشات المتوسطة والثقيلة ان تحتل هذه المواقع اكثر من مرة . ولكننا استطعنا ان نسترجعها اكثر من مرة ايضا. وبالنسبة لدير الراعي الصالح ، حاولت القوات الانعزالية بهجمات متكررة ، احتلاله في اكثر من عشر محاولات كانت ترد فيها على اعقابها وقد تكبدت خسائر فادحة جدا . الا انها في المرة الاخيرة استطاعت ان تصل الى الدير، بعد التمهيد للعملية بنيران كثيفة ، وبعد ان جرح لنا ١٢ مقاتلا من الجبهة ، بالاضافة الى اثنين من جيش التحرير .

رفيقتنا جميلة كانت من بين الجرحى، وقد كانت في الموقع الاول . والنقيب بدر مسؤول جيش التحرير، استشهد بكرامة . كان على رأس قوته خلال المعركة ، وسقط قبل ان يتمكنوا من دخول الموقع. كما استشهد لنا الرفيقان سليمان الرمحي والشهيد ابراهيم .

« ومع ذلك استطعنا بقيادة مسؤولنا العسكري، الشهيد فؤاد فيصل ، الذي حضر المعركة من بدايتها ، القيام بهجوم معاكس ، وحررنا جزء من الدير الذي هو مدرسة ، ومن دون اية خسائر . طبعا تكررت محاولات الانعزاليين لاحتلال مواقع اخرى في هذا الدير ، واستطاعوا فعلا ان يقتحموا الدير عدة مرات الا ان قواتنا استطاعت اجلاءهم المرة تلو الاخرى . وخلال احدى معارك التطهير استشهد الرفيق عبد خنجر ، كما استشهد الرفيق سامي حمد ، شقيق رفيقنا الشهيد القائد يوسف حمد ... وفي النهاية استطاعت القوات الانعزالية ان تحتل الدير بشكل نهائي . وهذه الامور تكررت بالنسبة لمحور الكنيسة المقابل لحرش ثابت : قصف شديد وعنف ، تتقدمه دبابات ، تحتل الموقع ثم يتمكن رفاقنا من استرجاعه ، وتكرر عملية الاحتلال والاجلاء مرات عديدة . وبالنسبة لمنطقة سلاف تكررت العملية ، عشر مرات . وفي كل مرة كان عدد المهاجمين من القوات الانعزالية لا يقل عن الف مسلح ، وعدد كبير من الاليات ، بالاضافة الى العربات حاملة الرشاشات .

□□□

شهداء الماء

ويروي الرفيق ابو احمد صورا عن نضالات واستشهاد مقاتلينا في تل الصمود ، ويؤكد امرا اصبح معروفا : ان عدد الذين سقطوا في المعارك كان اقل بكثير من عدد المدنيين الذين كانوا يسقطون من جراء القنص والقذائف ، واللهفة الى ... نقطة ماء :

« لقد استشهد عدد كبير جدا من مقاتلي المقاومة الفلسطينية والحركة الوطنية اللبنانية في المخيم. القضية في تل الزعتر كانت قضية انتصار ، او استشهاد . لم نكن نخاف الموت . الرفيق علي سعيد وكان المسؤول عن محور الكنيسة ، استشهد نتيجة اصابته برصاص ٥٠٠ في رقبته . كذلك الرفيق علي بريدي ، الذي اصيب في بطنه، والرفيق الشهيد سعد الله خليطي الذي اودت به قذيفة . والرفيق محمد بهاء الدين بريدي استشهد برصاص قناص وهو يحاول سحب جثة الشهيد سعد ... »

وقد عانى اهالي تل الزعتر الصامدون وحتى الموت ، من النقص الشديد في الماء . لقد قطعت المياه عن تل الزعتر منذ بداية الهجوم الانعزالي البربري على المخيم المحاصر . ولم يتبق سوى مصدر للماء واحد ، لم يكن يستمر طوال الاربع والعشرين ساعة :

« احيانا تأتي المياه الى هذا المصدر في التاسعة ، او الحادية عشرة ، او الواحدة بعد منتصف الليل . وتستمر حتى الساعة الرابعة صباحا ، ثم تنقطع . لذلك كان يتجمهر عدد كبير جدا من الناس ، من اطفال ونساء وشيوخ وشباب. وكان الانعزاليون يعرفون عن مصدر الماء هذا، لانهم كانوا يصرخون بالاهالي بواسطة مكبر الصوت : « يا فلسطينيين، بالدور لا تصيحوا ، بدنا ننام ». ثم يبدأون قصف مصدر الماء بعنف . كان يستشهد عند مصدر الماء ، لوحده بين ١٥ و٢٥ شخصا في اليوم ، طوال فترة الحصار . ويمكننا ان نحسب بسهولة : معدل ٢٠ شخص في اليوم ، في ٥٢ يوم يكون قد استشهد ١٠٤٠ شهيدا من العطاش واصحاب العائلات العطشى ، عند مصدر الماء ! »

لقد تم حفر بئر ارتوازي قرب جامع المخيم . كما وجد بئر ماء اخر كان الشباب في فتح يشغلونه على موتور يعمل بالمازوت . وتم وصل شريط كهربائي من البئر الى مركز الهلال الاحمر . واصبح بالامكان ولفترة محدودة ، استخراج الماء من هذين البئرين. ولكن المازوت نفذ ، ولم يتبق بالتالي سوى بئر واحد ، ولكن توزيع الماء كان يتم بشكل سيء وغير منظم ، وكان الكثيرون من العطاش يعودون بالتالي ، دون ارواء عطشهم . وادت الفوضى هناك وسوء التصرف ، الى حصول حوادث لا يمكن تبريرها .

ولكن ماذا بالنسبة للمؤن . وهل صحيح انها نفذت خلال الحصار ، ثم ظهرت كميات منها عند احدى المنظمات قبل سقوط تل الصمود بيوم واحد ؟

« لحسن الحظ وقبل الهجمة الشرسة الاخيرة بيوم واحد ، تم فتح مخزن جورج غرة . وجد مليئا باكياس العدس . وراحت الناس تأخذ منه حاجتها . من اراد يذهب ويحضر منه حاجته . ونفذت المؤن بشكل مخيف من المخيم . لم يبق لدى الاهالي سوى العدس . كانوا يطبخونه باشكال مختلفة . وعندما لا تتوفر الماء كانوا يأكلونه كيفما كان . كنا نعاني من مشكلة تموينية حادة جدا . قبل الحصار استطعنا بامكانياتنا المتواضعة ان نوزع التموين على ٧٠٠ عائلة » .

دور الخونة

لقد كان للصاعقة وبلال حسن بشكل خاص دور كبير باسقاط تلة المير ، وفي جسر الباشا ايضا . في جسر الباشا كانت هناك عناصر من الصاعقة تحرس مدخل الضيعة . انسحبوا من هناك ، وسلكت الطريق امام الانعزاليين لاقتحام المخيم . واتبعوا اسلوبا مشابها في تلة المير . وبسقوط هاتين المنطقتين اصبح خطر الانعزاليين مؤكدا على مخيم تل الزعتر .

« بعض الاشخاص الذين يعتبرن انفسهم من وجهاء المخيم حاولوا ان يضغطوا على مسؤولي المنظمات بالاستسلام . ولعب بلال حسن دورا قذرا جدا في تحريك هؤلاء الناس . ووصلت به الخيانة حد ارسال كتاب الى مسؤول الكتائب يعرض عليه الاستسلام . قرأنا الرسالة وقرأنا الرد الذي بعث به سليم رعيدي مسؤول الكتائب ، الى بلال . طبعا كان عرض الكتائب مهينا جدا . ادين بلال حسن بشدة على هذا التصرف . وصدر قرار باعتقاله وحجزه الى ان تنتهي مشكلة تل الزعتر ، ومن ثم يحاكم من قبل قيادة المقاومة . ولكن هذا القرار مثله مثل غيره من القرارات السابقة ، بقي من دون تنفيذ . وبقي بلال طليقا حتى يلعب دوره الخائن الكبير : ذهب الى الكتائب ومعه بعض المقاتلين الخونة امثال ابو المعتصم وابو جهاد وابو نضال من جبهة التحرير العربية ، وذلك قبل ٣ ايام من سقوط المخيم . ثم راح ينادي بمكبر الصوت ان على المحاور ان تستسلم . ابو الفدا المسؤول الاول للصاعقة في المخيم ، بقي الى اخر يوم . ولكن دوره لا يقل قذارة عن دور بلال . لقد ذهب ابو الفدا مع الشيخ عبد الامير شمس الدين (من رجال موسى الصدر) الى الكتائب ، ليعود بعدها الى الجماهير المجتمعة امام الجامع ويعلن : غدا سيأتي الصليب الاحمر في التاسعة والنصف صباحا لينقلكم الى المنطقة الغربية . الا ان ابو الفدا كان متفقا مع الكتائب ان يحضر بتنظيم الصاعقة وباسلحته قبل هذا الموعد بخمس ساعات، بينما دخلت الكتائب والقوات الانعزالية الاخرى الى المخيم في السادسة صباحا لتباشر مجازرها ومذابحها .. كل رجل او ولد فوق الثالثة عشر من العمر وفلسطيني ذبح بين الدكوانة وحي السريان. والذي استطاع ان يسلم لا بد ان له قصة تروى ».

الشهيد الرفيق الياس : تخرج طبيبا في المعركة

الشهيد الرفيق ابو امل : قائد تل الزعتر

دور المستوصف

كان للمرأة دور كبير خاصة في اعداد الطعام للمقاتلين ، وتحضير رغيف الخبز . ولكن للانصاف، كان المدنيون خارج الملاجىء يساعدون في اخلاء الجرحى . وقضية الجرحى كانت من ابرز قضايا المخيم المحاصر .

« كان في المخيم مركزان طبيان : مستشفى الهلال الاحمر ومستوصف الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين . في المستشفى كان هناك طبيبين ، وفي المستوصف ، طبيب وطبيبة . ويساعدهم في عملهم طاقم من الممرضين والممرضات . وكما يعرف كل الناس ، كان الوضع الطبي سيئا جدا في الفترة الاخيرة . وذلك بسبب النقص في الادوية والادوات الطبية . واضطرت المراكز الى استخدام الشراشف وقماش الديولين لتضميد الجراح . وعندما قطعت الكهرباء لم يعد هناك عمليات جراحية ، ممكنة للجرحى .

« كنت عندما ارى مصابا في بطنه ، اقول بانه لن يعيش طويلا . وبالفعل كان يستشهد بعد يوم او يومين على الاكثر . لقد شل هذا النقص في المواد الطبية عمل الاطباء .. اما مستوصف الجبهة الشعبية ، فقد قام بدور كبير لان افراد الطاقم قاموا بدور عظيم جدا ـ خاصة الرفاق الشهيد الياس العشي وزياد والرفيقات ، بسميرة ، صباح قدورة ، ووصفية مغربي وامنة ، والشهيدة ندى الطوقي . الرفيق الياس ، واستطيع ان اقول بفخر واعتزاز بانه دور فاق دور اكثر من طبيب في الزعتر. فقد اجرى عملية شهدتها ، لاحد المصابين في رأسه ، بشظايا قذيفة .. كان مخ المصاب ظاهرا. قص الياس الجزء المشوه منه ، وارجع الباقي ، ثم ضمده . وفوجئنا ان هذا الانسان عاش . سألته بنفسي عن اسمه بعد العملية ، فاجابني : محمد سعيد سلامة ... لقد اجرى الشهيد الياس ثلاث عمليات لاصابات في البطن . احدهم عاش عشرين يوما قبل ان يجيء الصليب الاحمر وينقله الى المستشفى ...

« اعتقد ان صمود تل الزعتر بامكاناته الضئيلة وبالعدد القليل من المقاتلين ، اذا ما قورن بحجم القوات الانعزالية وامكاناتها ، يمكن وصفه بحق ستالينغراد الفلسطينية ... هذا يعطينا الامل والدفع الى الامام حتى نستطيع التغلب على تحالف الاعداء الانعزاليين مع الصهيونية والرجعية العربية والامبريالية . واذا تراجعت قيادة المقاومة عن النهج المساوم والمتهاون عندها نستطيع العودة الى تل الزعتر ومشاهدة ولادة لبنان الديمقراطي الثوري المساند للثورة الفلسطينية والمتحالف معها » .